

## الامبريالية في الجزائر

يشكل الاتجاه الإمبريالي في الجزائر أحد المحاور الأساسية لفهم تاريخ البلاد الحديث، إذ تُعدّ الجزائر نموذجًا كلاسيكيًا لما يُطلق عليه الفكر الماركسي "الإمبريالية الاستيطانية" — أي الهيمنة المباشرة التي تستهدف الأرض والإنسان والموارد في آنٍ واحد. فمنذ الاحتلال الفرنسي عام 1830، أصبحت الجزائر بمثابة مختبر للسياسات الإمبريالية التي جمعت بين الاستغلال الاقتصادي، والإخضاع الثقافي، وإعادة تشكيل المجتمع الجزائري بما يتماشى مع الرؤية الكولونيالية الفرنسية. تسعى هذه المحاضرة إلى استعراض الأبعاد التاريخية والاجتماعية والفكرية للاتجاه الإمبريالي في الجزائر، مستندةً إلى أعمال مجموعة من المفكرين الجزائريين والأجانب، مثل: محمد حربي، محفوظ بنون، مصطفى الأشرف، جيلبير مينييه، علي الكنز، هواري عدي، وعبد الحميد مهري، إلى جانب تحليلات فرانز فانون، بنجامين ستورا، وشارل أندري جوليان.

### أولاً: مفهوم الامبريالية:

الإمبريالية (Imperialism) هي سياسة أو نظام تتبعه دولة قوية تهدف من خلاله إلى توسيع نفوذها وسيطرتها على دول أو شعوب أخرى، سواء كان ذلك عبر القوة العسكرية أو النفوذ الاقتصادي أو الهيمنة الثقافية والفكرية. بمعنى آخر، هي رغبة دولة في بناء إمبراطورية تخضع لها مناطق أخرى تستغلها في سبيل مصالحها السياسية والاقتصادية. أصل الكلمة: الكلمة مأخوذة من "إمبراطورية (Empire)"، أي الدولة التي تسيطر على أراضٍ وشعوب متعددة. وظهرت في الفكر السياسي الأوروبي في القرن التاسع عشر، مع توسّع القوى الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا. يُعرّف "الاتجاه الإمبريالي" في إطار النظرية الماركسية، كما وضعه فلاديمير لينين، على أنه المرحلة الأعلى من تطوّر الرأسمالية؛ وهي المرحلة التي تسعى فيها القوى الاقتصادية الكبرى إلى بسط هيمنتها على الأسواق والموارد في البلدان الضعيفة أو المستعمرة. وفي الحالة الجزائرية، لم تكن الإمبريالية مجرد مشروع اقتصادي للنهب والاستغلال، بل ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالاستعمار الاستيطاني الفرنسي الذي هدف إلى اقتلاع الهوية الوطنية وتحويل الجزائر إلى امتداد دائم لفرنسا سياسياً وثقافياً واقتصادياً.

### ثانياً: الجذور التاريخية للاتجاه الإمبريالي في الجزائر (1830-1954)

يُعدّ فهم الجذور التاريخية للاتجاه الإمبريالي في الجزائر خطوة أساسية لتفكيك آليات السيطرة التي اعتمدها النظام الاستعماري الفرنسي منذ بدايته. فالاحتلال لم يكن حدثاً عسكرياً عابراً، بل عملية طويلة الأمد هدفت إلى إعادة تشكيل البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلاد، لتتكامل مع مصالح الرأسمالية الأوروبية الصاعدة في القرن التاسع عشر.

#### أ. البنية الاقتصادية والسياسية

يشير محفوظ بنون (Mahfoud Bennoune) في كتابه (1988) *The Making of Contemporary Algeria* إلى أن فرنسا أنشأت في الجزائر اقتصادًا مزدوجًا يقوم على التناقض الطبقي والعرقي في آن واحد. فمن جهة، كان هناك اقتصاد استيطاني مُوجّه نحو التصدير يخدم الأسواق الأوروبية، ويعتمد على استغلال الأراضي الخصبة التي استولى عليها المعمّرون الفرنسيون بعد مصادرتها من الفلاحين الجزائريين. ومن جهة أخرى، نشأ اقتصاد تقليدي هشّ موجه للاستهلاك المحلي، تُرك للفلاحين الجزائريين الذين حُرّموا من أدوات الإنتاج الحديثة والتمويل.

هذا التقسيم البنيوي لم يكن اقتصاديًا فحسب، بل كان أداة سياسية لترسيخ التبعية. إذ تحوّلت الجزائر إلى قاعدة إنتاجية تُغذي الصناعات الفرنسية بالمواد الخام والزراعية، فيما بقيت عاجزة عن تطوير صناعة وطنية مستقلة. ويرى بنون أن هذا النموذج يُجسد الإمبريالية في أوضح صورها، لأنها لم تكتفِ بالاستغلال المادي، بل هدفت إلى تحطيم الاقتصاد المحلي وإعادة دمجه في المنظومة الرأسمالية العالمية ككيان تابع لا يملك قراره الاقتصادي. (Bennoune, M. (1988). *The Making of Contemporary Algeria, 1830–1987*. Cambridge University Press.

### ب. الاستعمار الثقافي وإعادة تشكيل الوعي

أما المفكر الجزائري مصطفى الأشرف (Mostefa Lacheraf) فيرى في كتابه *Algérie: Nation et Société* (1978) أن الإمبريالية الفرنسية تجاوزت الأبعاد الاقتصادية والسياسية لتتطال البنية الثقافية للمجتمع الجزائري. فقد كان الهدف من المشروع الكولونيالي، كما يؤكد الأشرف، إعادة تشكيل الهوية الجزائرية بما يخدم مصالح فرنسا، من خلال فرض اللغة الفرنسية، ونظام التعليم، والإدارة، وحتى الدين، كوسائل لإنتاج "جزائري فرنسي الهوية". لقد سعت فرنسا إلى تجريد الإنسان الجزائري من ذاكرته التاريخية، وإضعاف انتمائه العربي الإسلامي، لتحل محلها هوية مصطنعة تمجد "الحضارة الفرنسية". ويرى الأشرف أن هذا المسعى كان نوعًا من تشييء الإنسان المستعمر، أي تحويله إلى أداة طيعة في خدمة المشروع الكولونيالي، فاقد الإرادة والوعي بذاته (Lacheraf, M. (1978). *Algérie: Nation et Société*. Maspero.

### ج. خلاصة

إن الفترة الممتدة بين 1830 و1954 تُعدّ مرحلة التأسيس البنيوي للإمبريالية في الجزائر. خلالها وضعت فرنسا الأسس الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي ظلت آثارها قائمة حتى ما بعد الاستقلال. لقد كان الاستعمار مشروعًا شاملاً يهدف إلى السيطرة على الإنسان والأرض والفكر معًا، فالإمبريالية لم تكن مجرد استعمار جغرافي، بل كانت مشروعًا حضاريًا زائفًا يستمد شرعيته من فكرة "التفوق الأوروبي" و"رسالة التمدين".

ومن هنا، يمكن القول إن الجزائر لم تكن فقط ضحية لاستعمار كلاسيكي، بل كانت حقل تجارب لسياسات الإمبريالية العالمية التي جمعت بين النهب الاقتصادي، والإخضاع الثقافي، والتشويه النفسي للشعوب الخاضعة.

### ثالثاً: الإمبريالية والتحليل الماركسي للثورة الجزائرية

مع منتصف القرن العشرين، بلغت الإمبريالية الفرنسية في الجزائر ذروتها، لكنها كانت في الوقت نفسه تزرع بذور نهايتها. فقد أدت عقود من الاضطهاد الاقتصادي والثقافي إلى تبلور وعي وطني ثوري أدرك أن التحرر لا يمكن أن يتحقق إلا عبر تفكيك البنية الإمبريالية ذاتها، وليس فقط عبر طرد المستعمر. وهنا جاء التحليل الماركسي ليقدم أدوات فكرية لفهم العلاقة بين الإمبريالية والثورة.

أ **محمد حربي: من المقاومة إلى بناء الدولة:** يُعدّ محمد حربي أحد أبرز المفكرين الجزائريين الذين درسوا الإمبريالية في سياقها التاريخي والاجتماعي داخل الجزائر. ففي كتابه (1980) *Le FLN: Mirage et Réalité*، يرى حربي أن الثورة الجزائرية لم تكن مجرد ردّ فعل وطني ضد الاحتلال الفرنسي، بل كانت ردّاً جدلياً على البنية الإمبريالية نفسها التي استغلت الإنسان والموارد وحطمت المجتمع التقليدي.

يرى حربي أن جبهة التحرير الوطني (FLN) جسدت مرحلة انتقالية من المقاومة الشعبية إلى الثورة التاريخية، أي من النضال المسلح ضد المستعمر إلى بناء مشروع وطني يسعى لتأسيس دولة مستقلة اقتصادياً وسياسياً. لقد كان الصراع في جوهره - حسب تحليله - صراعاً ضد الإمبريالية العالمية بقدر ما هو ضد فرنسا، لأن الاستقلال الحقيقي لا يُقاس برحيل الجيوش بل بتحرر البنية الاقتصادية والثقافية من التبعية.

كما أشار إلى أن الثورة واجهت تناقضاً داخلياً بعد الاستقلال، إذ تسربت بعض آليات السيطرة الكولونيالية إلى مؤسسات الدولة الجديدة، مما جعل مشروع التحرر بحاجة إلى مراجعة مستمرة حتى لا يتحول إلى "إمبريالية وطنية" تعيد إنتاج التبعية بأشكال جديدة. Harbi, M. (1980). *Le FLN: Mirage et Réalité*. Paris: Jeune Afrique.

### ب جيلبير مينييه: الإمبريالية الداخلية وبنية السيطرة

من جانبه، قدّم المؤرخ الفرنسي جيلبير مينييه (Gilbert Meynier) تحليلاً دقيقاً لما سماه "الإمبريالية الداخلية" في كتابه (2002). *Histoire intérieure du FLN (1954-1962)*. فهو يرى أن فرنسا، مع اقتراب نهاية وجودها الاستعماري، لم تكتفِ بالهيمنة المباشرة، بل سعت إلى بناء شبكة من السلطات المحلية الموالية لها داخل النسيج الجزائري، بهدف ضمان استمرار مصالحها حتى بعد الاستقلال.

لقد أسست الإمبريالية الفرنسية بنية معقدة من العلاقات الزبونية، تعتمد على طبقة من الوسطاء الإداريين والاقتصاديين الجزائريين الذين ارتبطوا بمصالح المستعمر. وبذلك، أصبحت السيطرة الفرنسية داخلية أكثر منها خارجية، وهو ما يُعبر عنه مينيه بمفهوم "الإمبريالية الداخلية"، أي الهيمنة من خلال وكلاء محليين.

يرى مينيه أن هذا النمط من السيطرة هو ما يفسر استمرار مظاهر التبعية بعد 1962، رغم تحقيق الاستقلال السياسي، لأن البنية الكولونيالية أعيد إنتاجها في صورة جديدة عبر الدولة الوطنية *Histoire*. Meynier, G. (2002). *intérieure du FLN, 1954-1962*. Fayard.

### خلاصة

تكشف المقاربة الماركسية للثورة الجزائرية أن المواجهة مع الإمبريالية لم تكن فقط مواجهة عسكرية أو سياسية، بل كانت صراعاً بنيوياً ضد منظومة كاملة من السيطرة. فالثورة مثلت لحظة انفجار تاريخي أعادت فيها الجزائر تعريف نفسها ككيان مستقل يسعى إلى تحطيم علاقات التبعية وإعادة بناء مجتمع متحرر من الاستغلال الطبقي والاستعمار الثقافي معاً.

**رابعاً: الفكر الإمبريالي ومقاومته الثقافية:** بعد أن ترسخت السيطرة الفرنسية في الجزائر عبر أدواتها العسكرية والاقتصادية، انتقلت الإمبريالية إلى مستوى أعمق وأكثر خطورة: **المستوى الثقافي والمعرفي**. فالإمبريالية — كما يصفها عدد من المفكرين الجزائريين — ليست مجرد هيمنة سياسية أو اقتصادية، بل هي أيضاً منظومة فكرية ومعرفية تسعى إلى إعادة تشكيل الوعي الجمعي للمجتمع المستعمر بما يتوافق مع مصالح المستعمر. ومن هنا، برزت المقاومة الفكرية والثقافية كوجهٍ موازٍ للمقاومة المسلحة، إذ سعى المفكرون الجزائريون إلى تفكيك آليات السيطرة الفكرية وإعادة بناء الذات الوطنية من جديد.

**1 علي الكنز: الإمبريالية والمعرفة:** يُعدّ المفكر علي الكنز (Ali El Kenz) من أبرز من درسوا العلاقة بين المعرفة والهيمنة في السياق الجزائري. ففي كتابه (1989) *L'Algérie et la modernité*، يرى أن الإمبريالية الحديثة لم تعد تمارس نفوذها فقط عبر الاحتلال المباشر، بل من خلال التحكم في إنتاج المعرفة، أي عبر الأدوات الرمزية للهيمنة مثل اللغة، والتعليم، والإعلام، والبحث العلمي.

يشير الكنز إلى أن فرنسا — ومن بعدها المنظومة الغربية — استخدمت المؤسسات التعليمية والثقافية لترسيخ نموذج معرفي أحادي يقدم الغرب باعتباره "المركز الحضاري"، ويهمش التجربة الجزائرية والعربية. وبهذا تحولت الإمبريالية إلى ما يسميه "الإمبريالية الرمزية"، أي السيطرة عبر المعاني والقيم والمناهج، لا عبر الجيوش. كما يحذر الكنز من استمرار هذه الهيمنة بعد الاستقلال من خلال التبعية اللغوية والثقافية، حيث ظلّ التفكير العلمي والفلسفي في الجزائر أسير

النموذج الغربي، مما جعل التحرر الثقافي أكثر تعقيداً من التحرر السياسي (El Kenz, A. (1989). *L'Algérie et la modernité*. ENAL.

## 2 عبد الحميد مهري: الإمبريالية والاستقلال الوطني

يرى عبد الحميد مهري، أحد أبرز رموز الحركة الوطنية والفكر السياسي الجزائري، أن مقاومة الإمبريالية لا يمكن أن تقتصر على الجانب العسكري، بل يجب أن تشمل بناء مشروع وطني مستقل فكرياً واقتصادياً. في نصوصه السياسية التي جمعت في كتاب (1976) *La Révolution Algérienne et la Construction du Socialisme*، يطرح مهري رؤية شاملة تربط بين التحرر الوطني والتحرر الاجتماعي، معتبراً أن الاستقلال السياسي يفقد معناه إن لم يُترجم إلى استقلال اقتصادي وثقافي حقيقي.

ويؤكد مهري أن الإمبريالية تسعى دوماً إلى إعادة إنتاج التبعية بعد الاستقلال من خلال التحكم في الاقتصاد والموارد والمعرفة، وهو ما يستدعي وعياً وطنياً قادراً على بناء نموذج تنموي مستقل ومتماسك. لقد كانت فكرته الجوهرية أن الثورة الجزائرية لا تكتمل إلا عندما تتحول من ثورة سياسية إلى مشروع حضاري يرسخ السيادة الثقافية والاقتصادية (Mehri, A. H. (1976). *La Révolution Algérienne et la Construction du Socialisme*. SNED.

**تحليل:** تبرز في كتابات الكنز ومهري فكرة مركزية مفادها أن الثقافة هي خط الدفاع الأخير ضد الإمبريالية. فإذا كانت الجيوش قد رحلت بعد 1962، فإن الفكر الإمبريالي بقي حاضراً في اللغة، وفي المناهج الدراسية، وفي القيم الاجتماعية التي ما زالت تتأرجح بين الأصالة والتبعية.

ومن هنا جاءت المقاومة الثقافية كاستمرار طبيعي للمقاومة الوطنية، إذ تحوّل سلاح الوعي إلى وسيلة لتحرير العقول من الاستلاب، وإعادة بناء الذات الجزائرية على أساس الهوية والتاريخ والمعرفة المحلية. لقد فهم المفكرون الجزائريون أن الإمبريالية لا تموت بانتهاء الاستعمار، بل تتجدد بأشكال رمزية ومعرفية، وأن مواجهتها تتطلب نقداً دائماً وإبداعاً فكرياً يعيد للجزائر مركزها الحضاري في العالم. كما توضح كتابات حربي ومينييه أن الإمبريالية ليست مجرد مرحلة في التاريخ، بل نظام متجدد قادر على إعادة إنتاج نفسه داخل البنية الوطنية إذا لم يُواجه بنقد فكري واقتصادي مستمر.

**خامساً: التحليل السوسيولوجي المعاصر للإمبريالية:** بعد الاستقلال، ظنّ كثيرون أن رحيل المستعمر الفرنسي يعني نهاية الحقبة الإمبريالية في الجزائر. غير أن العقود التالية كشفت أن الإمبريالية قادرة على إعادة إنتاج نفسها بأشكال جديدة، داخل مؤسسات الدولة الوطنية ذاتها. فالإرث الكولونيالي لم يُمحَ بمجرد رفع العلم الوطني، بل استمرّ عبر أنماط التفكير، والبيروقراطية، والاقتصاد الريعي الذي تشكّل في ظلّ الدولة المركزية.

## 1 هوارى عدي: الإمبريالية من الخارج إلى الداخل

يُعدّ عالم الاجتماع هوارى عدي (Addi) من أبرز من تناولوا هذه الظاهرة في إطارها السوسيولوجي. ففي كتابه (1994) *L'Algérie et la Démocratie*، يقدم عدي قراءة معمّقة لكيفية استمرار البنية الإمبريالية داخل المجتمع الجزائري بعد الاستقلال، معتبراً أن الاستعمار لم يُنه الهيمنة، بل نقلها من الخارج إلى الداخل. ويرى عدي أن النخبة السياسية التي ورثت السلطة بعد 1962 تبنت نموذج الدولة المركزية الريعية، حيث أصبحت الثروة الوطنية — وخصوصاً عائدات النفط — وسيلة للهيمنة السياسية والاجتماعية، ما أدى إلى استنساخ البنية الكولونيالية في ثوب وطني.

فالبيروقراطية التي كانت في خدمة الإدارة الفرنسية، استبدلت بطبقة بيروقراطية جديدة احتكرت القرار والموارد، مما أدى إلى ما يسميه عدي "الاستعمار الداخلي" — أي سيطرة فئة محدودة على المجتمع باسم التحرر الوطني. كما يوضح أن هذه البنية حالت دون تحقيق الديمقراطية، لأن النظام السياسي الريعي يستند إلى الولاء لا إلى المشاركة، وإلى توزيع الربح بدل الإنتاج، مما يجعل الاقتصاد تابعاً للمنظومة الرأسمالية العالمية رغم الشعارات الثورية. (Addi, H. (1994).

*L'Algérie et la Démocratie. La Découverte.*

2 من الإمبريالية الكولونيالية إلى الإمبريالية البنيوية: يُظهر التحليل السوسيولوجي المعاصر أن الإمبريالية لم تعد مجرد مشروع غربي خارجي، بل أصبحت بنية اجتماعية داخلية تتجسّد في العلاقات غير المتكافئة بين السلطة والمجتمع، وبين المركز والهامش. لقد تحولت أدوات السيطرة من الاحتلال العسكري إلى أدوات اقتصادية وإدارية وثقافية تُعيد إنتاج التبعية في أشكال جديدة، سواء عبر الاعتماد على الخارج، أو عبر استغلال الموارد داخلياً لصالح فئة محدودة. يُبرز هذا التحليل أن الاستقلال الشكلي قد يُخفي تبعية بنيوية أعمق، وأن تفكيك الإمبريالية في السياق الجزائري لا يقتصر على نقد الماضي الاستعماري، بل يتطلب تحليل الحاضر الوطني بما يحمله من استمرارية لتلك البنى التي وُلدت تحت الاستعمار.

**خلاصة:** تكشف مقاربة هوارى عدي أن فهم الإمبريالية لا يمكن أن يقتصر على العلاقات الدولية، بل يجب أن يمتد إلى البنية الداخلية للدولة والمجتمع. فالإمبريالية — في شكلها الجديد — لم تعد تُمارس فقط من الخارج، بل أصبحت نمطاً من العلاقات الاجتماعية والسياسية يعيد إنتاج نفسه من خلال المؤسسات الوطنية. ويُعدّ هذا التحليل دعوة لإعادة التفكير في مفهوم التحرر ذاته، إذ إن الاستقلال لا يتحقق برفع الحدود عن المحتل، بل حين تتحرر الدولة من منطق الهيمنة الداخلي والخارجي معاً. فكما كانت الإمبريالية الفرنسية تسيطر باسم "التمدين"، أصبحت البيروقراطية الوطنية تسيطر باسم "الشرعية الثورية"، والنتيجة واحدة: استمرار التبعية وإضعاف المشاركة الشعبية.

واصل العناصر المتبقية باختصار

**سادساً: البعد النفسي للإمبريالية:** يتناول فرانتز فانون (Frantz Fanon) في كتابه *Les Damnés de la Terre* (1961) البعد النفسي العميق للهيمنة الاستعمارية، مؤكداً أن الاستعمار لا ينهب الثروات فحسب، بل يغزو وعي الإنسان المستعمر ويزرع فيه عقدة النقص تجاه المستعمر. ويرى فانون أن المقاومة في هذا السياق لا تقتصر على التحرر السياسي، بل هي أيضاً عملية تطهير نفسي جماعي تُمكن الإنسان من استعادة إنسانيته المهذورة بفعل القهر الاستعماري. لقد جعل من الثورة الجزائرية نموذجاً للتحرر النفسي والاجتماعي في آن واحد (Fanon, F. (1961). *Les Damnés de la Terre*. Maspero.

**سابعاً: الإمبريالية الجديدة (1980-2020):** في مرحلة ما بعد السبعينيات، تغير وجه الإمبريالية، كما يوضح محفوظ بنون وعلي الكنز. فقد تحولت السيطرة من الاحتلال المباشر إلى الهيمنة الاقتصادية والمالية عبر مؤسسات مثل صندوق النقد الدولي والبنك العالمي، فرضت هذه المؤسسات على الجزائر سياسات تقشف وخصخصة أعادت إنتاج التبعية، وهو ما سماه بنون "الاستعمار المالي الجديد". ويرى الكنز أن هذا التحول مثل انتقالاً من الاستعمار العسكري إلى الاستعمار الاقتصادي الرمزي، حيث أصبحت المديونية وسيلة للتحكم في القرار الوطني (Bennoune, M. (1991). *Algeria: The IMF and the New Colonialism*. *Third World Quarterly*. El Kenz, A. (1989). *L'Algérie et la modernité*. ENAL.

**ثامناً: الموقف الفكري الجزائري من الإمبريالية:** تجمع أعمال مفكرين مثل الأشرف، حربي، مهري، والكنز على أن مواجهة الإمبريالية لا يمكن أن تكون فقط سياسية، بل يجب أن تكون فكرية وثقافية أيضاً. فالمثقف الجزائري، في نظرهم، يحمل مسؤولية إنتاج فكر نقدي مستقل قادر على تفكيك البنى الإمبريالية وتحليلها في سياق محلي، بعيداً عن النماذج الغربية الجاهزة. إن مقاومة الإمبريالية تبدأ من تحرير الوعي وبناء معرفة جزائرية تنطلق من الواقع لا من التقليد.

### الخاتمة

يتضح من هذا المسار أن الإمبريالية في الجزائر كانت مشروعاً شاملاً طال الأرض والإنسان والفكر، وأن مقاومتها تطوّرت من التحرر العسكري إلى التحرر الثقافي والاقتصادي. لقد أظهرت التجربة الجزائرية أن الاستقلال لا يكتمل إلا بتفكيك جميع أشكال التبعية، وأن الوعي النقدي الوطني هو السلاح الأقوى في مواجهة الإمبريالية المتجددة بأفئنتها الحديثة.

